بقلم: إنعام رعد

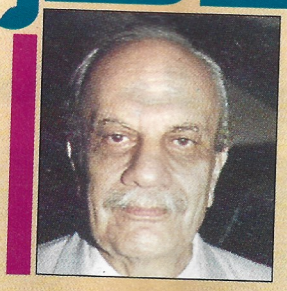

رحلة السيدة اولبرايت:

السيرك والبهلوانيان و«اوكازيون» الدوحة

زارتنا السيدة اولبرايت بعد ثمانية أشهر من الدلال والعزوف عن ذكر المنطقة في أولوياتها. وبقيت السيدة اولبرايت تعزف على قيثارتها وروما تحترق وهي بعيدة عن «الشرق الاوسط» بل حاذفة ذكره في «الاجندة» المشغولة بالشرق الاقصى واوروبا وحتى اميركا اللاتينية. جالت القارات وفتحت كل الملفات الا ملف منطقتنا عدا موضوع وحيد أمرت بأن يعقد في موعده: مؤتمر الدوحة الشرق أوسطي الذي يعود العرب فيه الى بيت طاعة التطبيع مع اسرائيل وتنكسر قرارات الاجماع العربي بوقف التطبيع والمفاوضات المتعددة.

وخاب الرهان حيث أخذت الدول العربية واحدة بعد الأخرى تعلن عزوفها عن حضور مؤتمر الدوحة. وفاجأت الوزيرة مواقف دول صديقة بل حليفة لواشنطن وفي طليعتها المملكة العربية السعودية.

وبدا ان قمة الدوحة سيتعطل نصابها العربي لا سيما ان المبرر الواقعي لمقاطعتها «تعثر عملية السلام» على يد الحكومة الاسرائيلية بقيادة بنيامين نتانياهو.

كان القصد اعطاء نتانياهو فرصة ليُخضع المنطقة بأسلوبه ويفرض شروطه دون تدخل اميركي ولو لاحداث بعض الرتوش. لكن كلما مر الوقت تبيّن للوزيرة ان نتانياهو الذي اراد الوقت ليربح يخسر، وتخسر معه اسرائيل. فقواته الغازية هي التي تُؤدب في لبنان وغاراته وقصفه اعتاد عليها اللبنانيون الصامدون في جنوبهم في أروع تلاحم بين الانسان وأرضه الطيبة المزروعة بالشهداء.

وعصر السلطة الفلسطينية لم يبق لها هيبة ولا نفوذ. وتحوّلت مدن الضفة وغزة والقدس الى مسرح صدامات يومية، الى حرب شوارع، وازداد نفوذ «المتطرفين»، بل اصبح الشارع الفلسطيني كله «متطرفاً» بالمعنى الاميركي. فحتى انتخابات النقابات والجامعات تُسجل فوز «المتطرفين» أي فوز المقاومين والمناضلين ضد الاحتلال واتفاقات الاذلال.

وهكذا حكمت الضرورة ان تقوم الوزيرة الخطيرة «المرأة الحديد» بالتحرك الى المنطقة لانقاذ اسرائيل أولاً من الطريق المسدود بعد ان فشلت في الاختراق الموعود. ولانقاذ قمة الدوحة من فقدان النصاب وتفرق الاحباب، فلا تنعقد قمة ترعاها واشنطن وتحضرها اسرائيل، لتعقد بعد اسابيع قمة في طهران بحضور عربي واسلامي كامل وقد تحسنت علاقات عرب الخليج بجارتهم الايرانية ونجحت الدبلوماسية السورية المعاندة في مسألتين: في افشال قمة الدوحة بتضامن عربي ضد الغطرسة الاسرائيلية وبانجاح قمة طهران بمصالحة عربية ـ ايرانية.

هذه التطوّرات كانت خارج التوقعات. اذن كان لا بدّ من الرحلة الميمونة.

ولعل وصف العملية كلها قدمته السيدة اولبرايت، فلتسمح لنا ان نغرف من خطابها وننقل تعابيرها وأوصافها للعملية السلمية التي ترعى وقد أجادت أيما اجادة وتوفقت توفيقاً لا مثيل له في وصفها، اذ قالت: «ان الولايات المتحدة تُدير سيركاً، وفي السيرك على البهلوانين ان يقفزا ليلتقيا». حقاً انه سيرك، ومن لم يجرؤ على وصفه كذلك، أعطته الوزيرة الفرصة لأن يستخدم هذا التوصيف الرائع:

وهل السيرك يمثل حقيقة ومصيراً أم انها ملهاة وترفيه للمشاهدين كما هو العادة؟ واشنطن تدير ملهاة واللاعبون فيها وقّعوا على الاتفاقات وحازوا جوائز نوبل للسلام، وصفتهم الوصف الحق «بالبهلوانين» وحتى «يلتقيا» عليهما «القفز».

مديرة السيرك تأمر والبهلوان يقفز، هذه هي المهزلة. لكن أحد البهلوانين قفز كثيراً في السيرك فلم يعد له حيل للمشي فكيف بالقفز؟ قيل له ان نصيبه من الارض هو بعضها. ثم قيل بانه سيحصل على بعض البعض. ثم قيل له ان بعض البعض مُتعذّر الحصول عليه ما لم يقتل أخاه وابن عمه وكل العائلة. ثم قيل له بعد اتمام كل هذا، من بيع الارض والقضية وقتل الأهل والرعية سيكون له نصيب ليس في الارض ولا السيادة، بل بأن يكون شرطياً يحمي الاحتلال.

استمر القفز به حتى لم يعد له أثر على طاولة ما يسمى بالمفاوضات. ومع ذلك تضع عليه السيدة اولبرايت شروط وعروض المخفر الذي يحمي الاحتلال. المطلوب حرب اهلية فلسطينية وسلام اسرائيلي! «وبناء» الثقة قد بدأت بتعميره حجراً حجراً وبحصة بحصة، وستعقد «للطرفين» اجتماعات في واشنطن ...

ولكن ما ان ادبرت السيدة، وهي لم تزل في الطائرة، حتى احتل المستوطنون منازل في باب العامود اشتراها لهم الملياردير الاميركي اليهودي مسيسكوفيتش لخنق القدس واستكمال تهويدها، وبعلم الحكومة التي تحاول التملّص من هذه الخطوة الموقوتة مع انتهاء زيارة السيدة اولبرايت للتدليل على كيف تكون عملية «بناء الثقة» بالاستيطان المتوسع.

والمسألة كما وصفتها أصلاً مسألة «بناء منازل» وليست مسألة هدم منازل وتشريد شعب واغتصاب ارض وحقوق.

لخّصت الموضوع بأن لا ينفرد الطرفُ الاسرائيلي بأعمال تعرقل «بناء الثقة». المسألة لم تعد تقاس بمعايير حقوق الانسان، والاوطان، بل بعملية الثقة بين البهلوانيين. المعايير بهلوانية في سيرك السلام الشرق اوسطي. ولقد اعتادت الراعية الاميركية على ترقيص البهلوانيين. اذ لو لم يكن الموضوع موضوع سيرك لما عقدت أوسلو اصلاً، ولما استمر اللهاث وراء عملية في كل يوم تأكل حتى من حقوق حارس الاحتلال وليس صاحب الحق الذي جُرّد من زمان من كل حقوقه.

أليس غريباً ان توصف زيارة الوزيرة من اركان السلطة الفلسطينية بأنها مشجعة ومتوازنة!

أما بالنسبة «لجائزة الدوحة» التي لم تكن الوزيرة مرتاحة للحوار الذي سمعته في لقائها مجلس التعاون الخليجي لا سيما مطالعة الوزير الامير سعود الفيصل، فانها قد حذقت الكار. صحيح انها فوجئت بعدم الامتثال لرغبتها وسمعت وجهة نظر أخرى لم تكن تنتظر سماعها. ولكن المفتاح في محفظتها: «تحريك عملية السلام». وهي ستعمل خلال اجتماعات مهندس أوسلو «ابو مازن» المتخصص في السيرك وليفي ان تُحرّك هذه العملية، ولو في رقصة بهلوانية مبدعة حتى تفك طلسم المقاطعة العربية لمؤتمر الدوحة وتعلن: ها قد تحركت عملية السلام فهلمّوا نلتقي في الدوحة وكأن شيئاً لم يكن ... «وبراءة الاطفال في عينيه».

في رحلتها المشرقية التقت الرئيس الاسد بينما التصعيد الاسرائيلي في جنوب لبنان والذي وصفته في بيروت «بدائرة العنف» حيث تساوي بين المعتدي والمعتدى عليه. لكنها سمعت من الرئيس الاسد كلاماً مختلفاً حول حق اللبنانيين في الدفاع عن أرضهم ومقاومة الاحتلال.

«والخطوة الصغيرة» كانت في استئناف المفاوضات السورية ـ الاميركية. هكذا يقف الرئيس الاسد خارج السيرك ويرسم المعادلات التي تحفظ الكرامة. فالبهلوانيون يرقصون على ايقاع مدير السيرك. اما دمشق فتدوزن ايقاعها لمدير السيرك حتى يرقص على ايقاعها.

وأخيراً محطتها في بيروت. التفاؤل كثير بأنه أخيراً «في بيتنا رجل» والحقيقة سيدة تنافس الرجال في تشددها.

ولقد اتبعت السيدة اولبرايت اسلوباً خاصاً ومتميّزاً عن اسلافها، هو ان تحاضر في مجموعات فتُملي ببيانها وليس ببيان مشترك مع أحد، فتتوجه هي الى الشعوب بوجهة نظرها، وتكوّن رأياً عاماً معها وأحياناً تؤنب مستضيفها. فعلت هذا مراراً الا في دمشق كانت الزيارة صامتة.

في بيروت تفاءل البعض: لقد أيدت ورشة الاعمار، اعادت لبنان الى خريطة المنطقة والمفاوضات، لم تذكر المقاومة بالارهاب، أكدت ان الحلّ شامل وليس ثمة حلول جزئية، انه تفاؤل يبني قصوراً تعلو على قدر الخيال.

لكن هل كان بمقدور السيدة اولبرايت ان تنعت المقاومة بالارهاب والشعب اللبناني بكل فئاته وسفراء الدول العربية جميعاً يباركون للسيد حسن نصر الله بابنه الشهيد؟ الاعمال الباهرة أقوى وأسطع من كل البيانات بل هي تمزق البيانات المنحازة.

حُسن دراية من السفارة في بيروت او المستشارين ان استبدلوا العبارة «بدائرة العنف» او «العنف المأساوي» الذي يساوي بين المحتل والمقاوم في أحسن الأحوال.

ان اعادة لبنان الى خريطة المفاوضات لم تقترن ولو بعبارة واحدة حول القرار ٤٢٥ بل باصرار على سلام مع اسرائيل من شروطه التطبيع والأمن الاسرائيلي.

اخيراً كم سعدنا ان نسمع وهذا هو رأينا حقاً، مقارنة بين لبنان بتعدد طوائفه اذا ما صاغ وحدته الوطنية على ثراء التنوّع، والولايات المتحدة النموذج فعلاً على ذلك المصهر الذي يضم مواطنين من مختلف الاعراق والاديان. ولقد ذكّرتنا السيدة اولبرايت بالرئيس ترومان قبل ٥٠ عاماً في وصف هذا المصهر العظيم «اننا شعب متنوّع وبفضل هذا التنوّع لدينا قوة عظيمة، لدينا مكان للاختلافات والتباين في وجهات النظر، وان جزءاً من احترامنا لكرامة الانسان هو احترامنا لحقه في ان يكون مختلفاً، وهذا يعني مختلفاً في ماضيه ومعتقداته وعاداته واسمه وديانته. وهذه هي الديمقراطية الحقيقية».

نطمح فعلاً ان ينطبق هذا على لبنان الذي شكّل نموذجاً للوحدة المبنية على التنوّع رغم كل ما اصابه والذي نناضل ليتحوّل من دولة طوائف الى دولة مدنية ديمقراطية لا تمييز فيها على اساس الطائفة او العرق او الدين. فلبنان قابل لذلك لأن لا عنصرية تحكمه ولأن شعبه من نسيج واحد.

ولكن يا ليت السيدة اولبرايت لفظت هذه الاوصاف في اسرائيل لوجدت انها تطرح نقيضاً للكيان الاسرائيلي القائم على التمييز العنصري في قوانينه وممارساته حيث ممنوع الاختلاف في المعتقد او الاصل. لأن الفلسطيني في اسرائيل مواطن درجة عاشرة بل ان الاثيوبي او اليمني اليهودي مواطن درجة ثالثة!

ومع ذلك فاسرائيل هي «واحة الديمقراطية» في الشرق في قاموس السيرك!

والأهم هل تذكّرت السيدة اولبرايت وصايا نتانياهو لليهود الاميركيين في زياراته الى نيويورك بعد توليه الحكم ان لا يندمجوا ولا يذوبوا في المصهر الاميركي ويحافظوا على ولائهم لاسرائيل!

أترى لو سمع الرئيس ترومان توجيهات نتانياهو أما كان أعاد النظر في تورطه بدعم الصهيونية التي تنقض نموذجه الديمقراطي المتنوّع السمح الذي يندمج فيه مواطنون لهم «الحق في الاختلاف في ماضيهم ومعتقداتهم وعاداتهم واسمائهم وديانتهم»!

نحن مع النموذج الاميركي العلماني الديمقراطي ولكن اسرائيل نقيضه!

ولذلك المسألة مسألة خلاف على نمط الحياة بين المجتمع المنفتح والكيان العنصري!■